تطوير آليات التفاعل بين الممارسات الدبلوماسية وتعميق استخدامات اللغة العربية

دكتور حمزة قناوي

تُعد العلاقات الدبلوماسية إحدى مظاهر تطورِ المُجتمعاتِ البشرية في عصرنا الراهن، فهي تدلُ على تطورِ ونضج المجتمعات البشرية وقدرتها على إيجاد نوافذ للحوار والتواصل بين الدول وبعضها البعض، لتتخطّى بذلك حقبةً طويلةً من حقب عدم التوافق والحروب وعدم القدرة على التواصل وحل المشكلات بين الدول وبعضها البعض، ولا يمنع ذلك أنها ذات تاريخ طويل، بدأ بشكل شخصاني عبر أفراد لديهم القدرة واللباقة والمعرفة بأصول وبرتوكولات القصور الحاكمة، وكيفية التعامل مع الملوك والأمراء، والقدرة على الحوار والجدال وحسن الحجة، وإيضاح وجهة النظر، وغيرها من السمات الشخصية التي كانت في وقتها ذات أهمية كبيرة، فإذا كان المرسَل من قِبل مجتمع ما لديه مهارة التفاوض والتواصل وحسن الإلمام، فقد يجنب قومه ويلات الحروب، أما إذا لم يمتلك هذه المهارة، فربما تعرضت حياته نفسها إلى الخطر، وكذلك عرَّض قومه الذين يمثلهم لخطر ضياع مصالحهم أو للحروب.

ومع تطورِ العصر الراهن لم يعد الأمر يعتمد على الناحية الشخصية، والسمات الفردية، بل تطور الأمر ليصبح معتمداً على هيئات وأجهزة، وهذه الهيئات والأجهزة تعمل على توثيق الروابط الدولية، وتعبّر عن إرادة الدولة في علاقاتها الخارجية، وتقوم بدورها في نقل وجهة نظر الدولة إلى العالم الخارجي، وتحاول حل النزاعات وتحقيق المصالح عبر التمثيل الدبلوماسي لكل دولة لدى الدول الأخرى([1])، وقد اشتقت كلمة دبلوماسية من الكلمة اليونانية Diploma، ومعناها "الطي" إشارةً إلى المطويات التي كانت آنذاك تعتبر الوثائق الرسمية التي كانت تصدر عن الرؤساء والسياسيين في المجتمع اليوناني القديم، فينتج عن هذه الوثائق امتيازات وحوافز خاصة لبعض الأشخاص ([2])، ومن ثم فهذا ضمنياً يحملُ مجموعةً من المعاني مثل معنى الوثوقية، فالوثيقة تشير إلى الشهادة الرسمية، أو الوثيقة التي على أساسها يكتسب الدبلوماسي صفة المبعوث، ويصبح

1 - د.حازم محمد عتلم، د.إبراهيم محمد العناني: الوجيز في القانون الدولي العام، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 2015م، ص 351

2 - د.غازي حسن صباريني: الدبلوماسية المعاصرة: دراسة قانونية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2008م، ص 11

وفق هذه الوثيقة مفوضاً لممارسةِ مهامهِ، ومعتمَداً لدى الطرف الآخر الذي يمثل قومَهُ أمامَهُم، والمعنى الثاني يشير إلى الانتقائية، فمن كان يتم اختيارهم لمنحهم هذه الامتيازات كانوا يمتازون بسمات شخصية، ومهارات وقدرات على التعامل وتمالك الانفعالات، وحسن البديهة وحسن الرد وغيرها من السمات التي يتميزون بها عن الأفراد العاديين([3]).

مع تطور النضج والوعي الدولي والإنساني بأصول الممارسات الدبلوماسية، ومع كثرة هذه الممارسات وبيان أهميتها وتأثيرها على تحقيق مصالح الشعوب، بدأت النظرة تتسع للدبلوماسية، بحيث أنها رغم بقائها على أهمية السمات الشخصية للشخصية الدبلوماسية، فإنها أضافت دوائر أخرى نجدها في تعريف الأستاذ (سموحي فوق العادة) يقول بأنها: «مجموعة القواعد والأعراف الدولية والإجراءات والمراسم والشكليات التي تهتم بتنظيمِ العلاقات بين أشخاص القانون الدولي أي الدول والمنظمات والممثلين الدبلوماسيين، مع بيان مدى حقوقهم وواجباتهم وشروط ممارستهم مهامهم الرسمية، والأصول التي يترتب على اتباعها لتطبيق أحكام القانون الدولي ومبادئه، والتوثيق بين مصالح الدول المتباينة كما هي، وفن إجراءات المفاوضات السياسية في المؤتمرات والاجتماعات الدولية وعقد الاتفاقات والمعاهدات.»([4])، إنها بشكل آخر فن التعامل مع الآخرين، والقدرة على التعامل مع الغير، واكتساب مهارات متعددة مثل اللباقة، والحصافة وسرعة البديهة والقدرة على حسن التصرف في المواقف الصعبة، وإقناع الآخرين بالحجج والبراهين، إنها كلمة جامعة يمكن أن يوصف بها أفراد، فيقال على الإنسان اللبِق الكيّس الفطِن: إنسان دبلوماسي، أو توصف بها سياسات دول، فيقال الدبلوماسية الإماراتية، أو الدبلوماسية الخليجية، ويقصد بها كامل النهج السياسي الذي تتبعه الدول في تعاملها مع المواقف الدولية والخارجية، إنها كلمة محددة على نحو دقيق، وواسعة بحيث يمكنها أن تشمل كل شيء أيضاً.

هل تتأثر الدبلوماسية باللغة الوطنية؟ إذا ما اتفقنا على أن اللغة إحدى العناصر المهمة للهوية القومية، فإن الثوابت السياسية تتأثر بالهوية، ومن ثم فإن اللغة الوطنية القومية من الخطورة بمكان أنها عنصر مهم في التأثير على السياسات التي تتعامل بها الدول، ومن ثم فإن اللغة

3 - د.علي حسين الشامي: الدبلوماسية، نشأتها وتطورها وقواعدها، ط5، دار الثقافة، عمان، 2011م، ص 28م

4 - د.سموحي فوق العادة: الدبلوماسية الحديثة، دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1973م، ص 3.

مثلما هي أساس في تكوين الشخصية الفردية للفرد، إنها في مجملها تكون شخصية الدولة أيضاً، وعندما تكون اللغة سليمة فإنها تعبر عن شخصية وطنية قوية للدولة، وعندما تعتريها المشكلات، أو يوجد خلل في طريقة التفكير والتعبير بها؛ فإن ذلك سيؤثر لا شك على وضوح الرؤية الدبلوماسية، وعلى طريقة التعاطي مع المواقف المختلفة، ويؤثر على سياسات الدولة وتوجهات دبلوماسيها في الداخل والخارج، حتى لو كان هذا التأثير بشكل غير مباشر وعلى نحو غير ظاهر.

إن الأبحاث والدراسات المعاصرة تشير إلى أهمية اللغة كعنصر مكون من عناصر الشخصية القومية، فـ «هي المعمار الخفي الذي يشيد به الفكر ويستقيم» [5]؛ وهي ليست ذات أهمية خاصة بالفرد فقط، بل أيضاً ذات أهمية كبيرة للمجتمعات الإنسانية بعامة، فلكل مجتمع لغته، بل في داخل كل مجتمع توجد مجتمعات أخرى منبثقة عن المجتمع الأصلي، لها لهجاتها التي تتوافق مع لغة المجتمع الأساسية من ناحية، ولها تمايزها الخاص من ناحية أخرى، وبجانب ذلك فإن اللغة من أهم ملامح شخصية الإنسان، فهي تتحكم في الكثير من قيمه ومعتقداته، وطريقة نظرته للعالم من حوله، وكذلك أيضاً تتحكم في طريقة تفاهمه وتواصله مع أقرانه من أفراد المجتمع الذي يعيش فيه، وفي كيفية رؤيته للآخر الأجنبي الذي يستخدم لغة أخرى مغايرة، واللغة العربية بما تحمله من ثراء وقيمٍ تعبيريةٍ من أكثر اللغات قدرةً على تمثل تلك المفاهيم، فكيف يمكن إذن تنمية اللغة العربية في مجال الدبلوماسية الدولية؟

إن واقع سيطرة اللغات الأجنبية لا سيما اللغة الإنجليزية على الكثير من التعاملات الدبلوماسية الدولية هو أمر واقع، ويؤثر لا شك على موقع اللغة العربية في العلاقات الدبلوماسية، فما يحرك أي شيء في مجتمع الدبلوماسية هو عالم المصالح، فما المصلحة التي تجعل الدول غير العربية ترغب في اعلاء شأن اللغة العربية وتحاول تعلمها أو تحاول أن تتقن التواصل بها؟ إن الأمر يحتاج إلى نوع من الحكمة في كيفية تقديم اللغة العربية إلى غير العرب، وكيفية تقديم المنتجات التي تقوم الدول العربية حالياً بتصديرها إلى بلدان أجنبية مكتوبة بتعليمات عربية بالإضافة إلى اللغة الأجنبية باعتبارها المصدر الذي تمثله، ويحتاج الأمر أيضاً إلى التركيز على التحدث بالعربية في المحافل الدولية، فلا يعتمد السفير الدبلوماسي فقط على طرح

5 - عبد الرحمن زاوي: التعريب وبعده الحضاري ومتطلبات التعريب في العلوم والتكنولوجيا، مجلة اللغة الوظيفية، مجلد 9، عدد2، 2022م، ص 825.

ما يريد ذكره باللغة الإنجليزية، أو الفرنسية او الألمانية، وإنما يقدم ما لديه أيضاً بلغة عربية سليمة، ثم يتبع ذلك بترجمة إلى اللغة الإنجليزية.

إن اللغة العربية قادرة ولا شك على استيعاب كافة المصطلحات الدبلوماسية، وقادرة على تقديم الرؤية والطرح إلى مختلف أنحاء العالم، لكن في حقل الدبلوماسية فمثلما ننتقي من لديه إلمامٌ باللغة الأجنبية خاصة للبلد الذي سيتم الابتعاث إليه، فإنه أيضاً يجدر التدقيق على أن يكون ملماً باللغةِ العربية، ويمكن أن تلعب السفارات والقنصليات والبعثات والوفود الرسمية العربية دوراً كبيراً ومهماً في نشر اللغة العربية، كمنارةٍ تنشر وتعلم اللغة العربية إلى الدول الأخرى، فلا نستجيب لفكرة ضغط إتقان اللغة الإنجليزية في سوق العمل، أو في مجالات الاتفاقات الدولية وغيرها من المجالات، دون أن نحرص على وجود نسخة من اللغة العربية لكل هذه الاتفاقات، ونحرص على تداول المسميات العربية وعلى تداول اللغة العربية الفصيحة كلغة حية بين أفراد البعثة الدبلوماسية من ناحية، وبين المواطنين العرب المقيمين في هذه البلدان من ناحية ثانية، وبين الراغبين والمحبين والمتعلقين باللغة العربية في هذه البلدان.